مركز دراسات المعرفة والحضارة
Center of Knowledge and Civilization Studies

مقـــالات | 2020

تكوين يستحق الإشادة والتنويه

(ماستر الحوار الديني والحضاري، وقضايا التجديد في الثقافة الإسلامية)

الدكتور سعيد شبار
رئيس المجلس العلمي المحلي لبني ملال
أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال
المغرب

جميع الحقوق محفوظة © 2020
All rights reserved © 2020
لجنة الإعلام والتواصل

كانت بداية هذا التكوين منذ العام 2004، وهو أول ماستر تم اعتماده بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال. لقد عمر زهاء ست عشرة سنة، وكان بحق تجربة فريدة تستحق التنويه والإشادة بالمجهودات التي بذلت فيه والشكر والامتنان لكل القائمين به وعليه. وهذا ما حملني على كتابة هذه اللمعة، كي تبقى هذه التجربة حية لعلها تفيد من يرغب في الاستفادة منها.

سياق ودوافع التكوين.

لم تكن فكرة فتح هذا التكوين منذ البداية رغبة في إحداث ماستر (د د ع م، Desa، حينها)، ليكون رقما ينضاف إلى أرقام، أو لكي يحصل القائمون عليه والمتخرجون منه على شواهد؛ فهذا وإن كان هذا حاصلا بالضرورة، فإن المنطلق والأفق كان ولا يزال أكبر بكثير من ذلك.

كانت الفكرة الكامنة والدافعة إلى الإحداث، تكوين أجيال من الباحثين المسلحين بالعلم والعقل والمعرفة والمنهج؛ ينتفعون وينفعون، يتكوَّنون ويُكَونون. لهم قدرة على الإسهام في إنتاج المعرفة، والانخراط في نقاش الملفات والقضايا المتعلقة بماضي وحاضر ومستقبل الثقافة الإسلامية والمشترك الإنساني. لم يكن في ساحات التكوين والتأهيل الأكاديمي بما فيه الجامعي في أسلاكه المختلفة، ما يحفز على البحث من هذا المنظور إلا استثناءات قليلة ونادرة؛ كانت معظم المقاربات يحكمها منطق التلقين والتكرار حتى إن كثيرا من الدراسات "العليا" لم تكن إلا تكرارا لما تم تلقينه في الدراسات "الدنيا"؛ والحشو بالمعلومات ووصاية الأستاذ على الطالب دون السماح له بالتفوق أو بالأحرى تجاوز أستاذه، وصاية تتخذ شكل "مشيخة" دينية أو فلسفية أو أدبية أو تاريخية... لا فرق. والمطلوب هو العمل على تأهيل وتكوين باحث مقتدر، ممتلك لآليات البحث وخوض غمار القضايا الشائكة، بحيث تتاح بين يديه كل فرص الحوار والنقاش وتلاقح المعارف المختلفة. طبعا نثمن جهود التكوينات المتخصصة في فن من الفنون أو علم من العلوم، ومجهودات الزملاء القائمين عليها؛ لكن كان حرصنا هنا مختلفا، وهو كيف ندرك العلوم

في تكاملها وطبيعتها المركبة، وفي تفاعلها لتشكيل نموذج أو نسق ثقافي معين. وهو ما لم تفلح الإصلاحات الجامعية منذ أواخر القرن الماضي إلى اليوم من تحقيقه والنهوض به؛ رغم المبادرة الجيدة التي لم توفق كذلك، في تجسير الهوة بين التخصصات من خلال انفتاح بعضها على بعض عبر الوحدات المشتركة.

إن القِلَّة القليلة من الباحثين الجيدين والمتميزين، هم نتاج تكوين عصامي خاص، وليس تكوين نظامي عام؛ أي بمجهودات استثنائية إضافية من طرفهم، يتجاوزون بها السير العادي والعام؛ وهكذا هم أصحاب المشاريع التجديدية والاجتهادية الكبرى قديما وحديثا.

> كانت الفكرة الكامنة والدافعة إلى الإحداث، تكوين أجيال من الباحثين المسلحين بالعلم والعقل والمعرفة والمنهج؛ ينتفعون وينفعون، يتكوّنون ويُكَونون. لهم قدرة على الإسهام في إنتاج المعرفة، والانخراط في نقاش الملفات والقضايا.

وإذا قيل هذا أمر عادي في جميع التكوينات ولدى جميع الدول؛ قلنا: إن معظم الدول، المتقدمة في البحث العلمي خصوصا، لا تشجع فقط التميز والتفوق، وإنما توفر قاعدته الأساسية في مناهج التكوين، والبنيات والاعتمادات الضرورية في البحث والتأطير؛ بحيث تكون قاعدة واسعة جيدة تشكل المستوى والنسبة العامة من التميز، ويبقى الاستثناء للأجود من هذا الجيد بحسب القدرات والمؤهلات. عندنا، وفي معظم الدول "النامية"، التفوق والتميز بالمعنى الذي ألمحنا إليه، سباحة مضنية ضد التيار. لا أنكر الجهود المبذولة بهذا الصدد، خاصة في الآونة الأخيرة، لكن لا تزال مسافات كبيرة فاصلة تحتاج إلى تكتل حقيقي لاجتيازها.

كانت الرغبة تحدونا في هذا التكوين، من أجل توفير فرصة لاحتضان نخب متميزة من هؤلاء الباحثين، وفتح أنساق المعرفة أمامهم لاستكمال التكوين؛ ولهذا كانت شروطنا في الولوج صارمة ما أمكن، رهانها على: الكفاءة والاستعداد النفسي والفكري للتحصيل أولا من أجل العطاء ثانيا؛ وقد يطرأ الخطأ أحيانا أو في بعض الحالات، لكن من غير قصد ودون عمد يقينا. ولقد تجند لخدمة هذا التكوين

طائفة من الأساتذة المتميزين كذلك من مختلف شعب الكلية، ومن مختلف جامعات المغرب، ومن باحثين ومفكرين من خارج المغرب كذلك.

كانت حصصنا الأولى في هذا التكوين، تحصيل الثقة به، وتعزيز ثقة الباحث بمؤهلاته، وحشد العزيمة والرفع من المعنويات، من أجل الاستمرار والالتزام في التحصيل والبحث، بطريقة تشبه سَنتي التكوين في الجندية؛ حيث استثمار الزمن في أعلى مستوياته، وحمل الفكرة وتحصيل اليقين بها في أعلى مستوياته، وطرد المشوشات والتحرر من المسبقات، والاستعداد لتقبل الفكر الآخر والمختلف، في أعلى مستوياته كذلك؛ فلا مجال لاستصغار النفس وتحقير الذات، وتثبيط العزيمة والإرادة. وكنا نعطي أمثلة من كبار الكتاب في الفكر الإسلامي، وفي الفلسفة، وفي التاريخ، وفي الأدب...، الذين كان معظمهم من سكان ومواليد البوادي النائية، ومن سكان الجبال والصحراء، ولم يعرفوا الحاضرة إلا في أوقات متأخرة من تحصيلهم؟

كانت حصصنا الأولى في هذا التكوين، تحصيل الثقة به، وتعزيز ثقة الباحث بمؤهلاته، وحشد العزيمة والرفع من المعنويات، من أجل الاستمرار والالتزام في التحصيل والبحث، بطريقة تشبه سَنتَي التكوين في الجندية.

خصمنا الحقيقي في هذا التكوين، والذي لم نكن نسمح بتسربه إطلاقا بأي شكل من الأشكال، عنصران اثنان، ازدحم على أبوابهما كثير من الناس: السياسة والأيديولوجيا. فلكلٍ أن يعتقد ما يشاء وينتمي إلى ما يشاء، لكن خارج التكوين لا داخله. حرصنا أن يكون التكوين في مواده وبحوثه، منذ البداية والى اليوم، خالصا للعلم والمعرفة. وكان شعارنا مع الطلبة الباحثين في الحوار والنقاش وعند الاختلاف: "بيننا وبينكم البحث"؛ نعم كل شيء يحسم بالبحث، وإذا لم يحسم يبقى البحث فيه مستمرا دون نقط نهاية. فليست هناك نقطة نهاية في نسق معرفي، إذ كلها مفتوحة للاجتهاد أمام الأجيال؛ فكيف وبأي حق يضع جيل أو أشخاص، نقاطا يعلنون بها "نهاية العلم والمعرفة"، أو "نهاية التاريخ والاجتهاد"، أو "نهاية التقدم والحضارة"...، ويصادرون بذلك على حقوق الأجيال المقبلة في الفهم والإبداع والاجتهاد والتجاوز.

فحتى الدين الذي هو معطى يقيني يقرر حقائق الغيب المطلقة في مجال الاعتقادات، نجده يقرر الى جانبها نسبية كل الحقائق في عالم الشهادة والوجود المادي والإنساني، حيث تُبنى العلوم والمعارف، ويفتحها للبحث والاجتهاد أمام الأجيال دون أن يصادر بعضها على حق بعض في تحقيق كسبه منها: "تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون".

طبيعة التكوين واهتماماته.

طبيعة هذا التكوين الانفتاح على أكبر عدد ممكن من التخصصات، وإن كان أصله العلوم الإسلامية، فمنظورا إليها ومبحوثا فيها بأفق إنساني منفتح على مختلف العلوم والخبرات والمعارف، ولهذا كان التكوين حريصا على استقطاب المتميزين في العلوم الشرعية من خريجي الدراسات الإسلامية والتعليم العتيق وكليات الشريعة، وكذا المتميزين في علوم أخرى كالتاريخ والفلسفة والأدب والقانون. وكانت مواده المقترحة متنوعة لغرض استيعاب وتأطير هذه الحاجة من العلوم، وبالأساس المشترك بينها الذي يجد أصله ومستنده في الدين حينما ينظر إليه معضدا للعلم والعقل والحرية والإبداع وليس خصما لها؛ وحينما ينظر إليها في أصلها خادمة للإنسان وباحثة عن سعادته ومحققة لكينونته، حيث تلتقي مع حقيقة الشريعة التي ليست إلا تحصيل مصالح العباد في المعاش والمعاد. ولهذا كانت هناك مواد تُعمق التخصص في العلوم الشرعية، وأخرى تفتح النسق على العلوم والمعارف الإنسانية بما فيها الدينية المشتركة، كالمقاصد وفلسفة الدين وقضايا الحوار والتعايش والاختلاف... إلخ.

طبيعة هذا التكوين الانفتاح على أكبر عدد ممكن من التخصصات، وإن كان أصله العلوم الإسلامية، فمنظورا إليها ومبحوثا فيها بأفق إنساني منفتح على مختلف العلوم والخبرات والمعارف.

كانت الرغبة تحدونا في هذا التكوين، كما يحمل اسمه، الى المزاوجة بين الدين والحضارة، أي الدين في تجليه الحضاري، والحضارة في عمقها الديني القيمي والإنساني. كما كانت تحدونا إلى استئناف حركة الاجتهاد والتجديد في مجال المعرفة والبحث؛ واسترجاع العقل المسلم لنبض الحياة، استئنافا للعطاء الذي كان لسلفنا وهو يقود الإنسانية بالعلم والمعرفة والإبداع. وإيمانا منا بأن التجديد في الثقافة ككل، لا يكون ولا يتم إلا بالتجديد في وحداتها المكونة لها؛ والتجديد على مستوى هذه الوحدات لابد من أن يكون له منظور ومنهج، هما من السعة والشمول والعمق، بما يسمح لهما بإدراك العلائق والتقاطعات، وفلسفة التكامل والاندماج فيما بين العلوم والمعارف.

كان الرهان، ولايزال، هو الانتقال إلى مرحلة أخرى من استثمار الإمكانات والأبعاد الكامنة في معاني ودلالات النصوص، والتي تزخر بها كليات مفاهيم الدين ومفرداته، ومحدداته المنهاجية، وأصوله المرجعية ذات القدرة الفائقة المضاهية في التفسير للوجود الإنساني والكوني؛ بحيث يكون اقتراحه في هذا الأفق إسهاما في حل مشكلات الانسان، وترشيدا لسعيه في الحياة، وتزويدا له بالقيم ومعاني الكينونة التي لن يجدها في غيره، بعد أن قهرته نزعات التملك والصراع من أجل الاشباع والسيطرة، الذي تقوده المنظورات الليبرالية الجشعة اليوم. هذه المرحلة نَظَّر لها رواد قِلة من الكتاب، وما تزال ثُغرا لا جُندَ من الباحثين فيه إلا القليل؛ تحتاج من جهة إلى تخليص وتحرير المعرفة الدينية من كثير من أثقال الماضي، ثم الارتقاء بها إلى مقام الشهود الحضاري والإنساني العام.

في هذا التكوين يجد الباحثون في العلوم الإسلامية، وفي الفلسفة والتاريخ والآداب والقانون، أنفسهم يناقشون نفس القضايا والموضوعات من زوايا مختلفة، وينتهون إلى خلاصات تكاد تكون متطابقة أو على الأقل متقاربة؛ وبينها من الائتلاف أكثر مما بينها من الاختلاف. وفي هذا تجاوز علمي وعملي لمنطق صراع الأضداد، والتقاطب الثنائي بين المفاهيم أو العلوم، الذي ساد حقبا من التاريخ، وهيمن على إنتاج المعرفة، وولد تيارات لا تحسن إلا الخصومة والصراع. علما أن كل ذلك إنما كان نتاجا تاريخيا تحكمت

فيه ظروف وسياقات، هي عند غيرنا من الأمم أكثر مما هي عندنا، لا ماضيا ولا حاضرا. وعلما بأن إمكان استرجاع فلسفة التكامل، ونزع فتيل التقابل لا يزال ممكنا، إذا استطعنا امتلاك النظر المجرد عن كل حساسية، والتحرر من كل مسبق، واستثمار العلم والدين والمعرفة، في أصولها وبنياتها الذاتية أكثر من تجلياتها التاريخية.

خريجون بمؤهلات منهجية وآفاق بحثية.

تخرج من هذا التكوين باحثون متميزون، وباحثات متميزات، لمعظمهم ومعظمهن، حضور بحثي أكاديمي ممتاز؛ أنشأ بعضهم تكوينات مماثلة في المغرب وخارج المغرب في دول أوروبية. وأسس بعضهم الآخر مراكز وجمعيات بحثية تشتغل بنفس المنظور والمنهج، قريبا منه أو متجاوزة له أحيانا. هذا فضلا عن مشاركتهم جميعا في المحافل الدولية والأنشطة والمؤتمرات الوطنية، وتنشيطهم لمؤسساتهم التي يشتغلون فيها، وانتاجهم لعشرات البحوث والدراسات العلمية الأكاديمية.

> كان الرهان، ولايزال، هو الانتقال الى مرحلة أخرى من استثمار الإمكانات والأبعاد الكامنة في معاني ودلالات النصوص، والتي تزخر بها كليات مفاهيم الدين ومفرداته، ومحدداته المنهاجية، وأصوله المرجعية ذات القدرة الفائقة المضاهية في التفسير للوجود الإنساني والكوني.

ولكي تبقى الصلة مستمرة، فتحنا منذ العام 2008 تكوينا للدكتوراه بعنوان قريب من تكوين الماستر، وهو "الحوار الديني والثقافي في الحضارة الإسلامية". حيث يسجل خريجو تكويننا ممن يجتازون المباراة بنجاح أطاريحهم، كما يسجلها خريجو الجامعات المختلفة، وطنية ودولية، ممن يجتازون نفس المباراة بنجاح. ولا يزال هذا التكوين في الدكتوراه يشتغل إلى الآن وبنفس النَّفَس والوثيرة التي ابتدأ بها؛ ولست أزعم الكمال فالنقص حاصل، لكن الأصل الحرص على تجنب الأخطاء ما أمكن، وإن أخطأنا في حق أحد فليس بقصد ولا عمد.

ومنذ العام 2004 كذلك، أنشأنا بالموازاة مع تكوين الماستر "مركز دراسات المعرفة والحضارة"؛ والذي كان اشتغاله طيلة العشر سنوات الأولى ضمن فضاء الكلية، ثم خرج بعد ذلك كمقر وترخيص إلى الفضاء العام ضمن قانون الحريات العامة. واستهدف المركز منذ إنشائه فكرتين أساسيتين، الأولى: احتضان خريجي الماستر والدكتوراه، وهم، أو معظمهم، أعضاء فيه إلى اليوم، ولو كانت لهم مراكز ومؤسسات وجمعيات بحثية أخرى. والثانية: استكمال التكوين بأنشطة علمية في ندوات ومحاضرات وطنية ودولية، وأنشطة مشتركة مع تكوينات في ماسترات ذات اهتمام قريب. حيث نظم المركز عشرات الملتقيات والتكوينات والتدريبات في الأوراش؛ كما تم تكريم رموز علمية وفلسفية وتاريخية من كبار أساتذة الجامعات المغربية. بل إن بعضهم، من داخل المغرب ومن خارجه، ممن أعجبوا بتوجه هذا التكوين قرروا التطوع للتدريس فيه بفصل كامل مكثف بارك الله فيهم وتقبل منهم؛ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر.

تخرج من هذا التكوين باحثون متميزون، وباحثات متميزات، لمعظمهم ومعظمهن، حضور بحثي أكاديمي ممتاز؛ أنشأ بعضهم تكوينات مماثلة في المغرب وخارج المغرب في دول أوروبية. وأسس بعضهم الآخر مراكز وجمعيات بحثية تشتغل بنفس المنظور والمنهج.

أحدث الأساتذة في هذا التكوين صندوقا ماليا، يساهمون فيه شهريا ويستفيد منه الطلبة الباحثون الذين يحتاجون دعما، إما لنسخ البحوث واقتناء الكتب، أو لأداء واجب الكراء حينما يتعذر عليهم، أو لأسفار قريبة أو بعيدة. كان التكوين في بعده العلمي البحثي والاجتماعي التضامني، تعبيرا حقيقيا عن "أسرة علمية" ممتدة عبر متوالية من الأجيال الوافدين عليه. أسرة ليس فيها آباء ولا أمهات وإنما إخوة وأخوات فقط، بمعنى أنه لا سلطة فيها "لأعلى" على "أدنى"، والكل فيها متكافئ؛ هي أشبه ما تكون بتقليد "الجماعات العلمية" الذي اشتهر لدى بعض المدارس الغربية.

ماستر يجدد نفسه.

إن كل ما أتينا على ذكره، وهو قليل من كثير، إنما هو لكيلا يمر هذا التكوين كعنوان ومضمون، دون أن نشيد به وننوه بالجهود المبذولة فيه من قبل الجميع، أساتذة وباحثين وباحثات وإدارة ومتعاونين. ولأنه تكوين يؤمن بالتجديد، وقد عَمَّر طويلا، ارتأى نظر المشرفين عليه تجديده تحت عنوان: "العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية تكامل في المعرفة والمنهج". وهذا التكوين الجديد، أو بعبارة ابن رشد رحمه الله: الأخ الرضيع والصاحب بالطبع والجوهر لسلفه، هو من ذلك الأصل الذي أصابه الهرم قليلا، لكن مع الاحتفاظ بكل المميزات والخصائص التي ذكرنا، والنَّفَس التكويني والالتزام الأخلاقي كذلك.

ارتأى نظر المشرفين عليه تجديده تحت عنوان: "العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية تكامل في المعرفة والمنهج". وهذا التكوين الجديد، أو بعبارة ابن رشد رحمه الله: الأخ الرضيع والصاحب بالطبع والجوهر لسلفه، هو من ذلك الأصل الذي أصابه الهرم قليلاً.

ويبقى الرهان على الأجيال الحالية في الصمود في ساحات البحث والتكوين، إذ هي مداخل الإصلاح والتغيير العميقة والحقيقية، حيث إعادة تشكيل الوعي، وإصلاح الفكر المتحكم في السلوك، وبناء الاعتدال والتوازن في المعرفة والثقافة؛ فالتحدي أمامها لا يزال بنفس القوة والعمق المطلوبين لرفعه، والاستلاب لإغراءات السياسة أو لتحيزات الأيديولوجيا، ليس إلا خسارة مضاعفة تزيد هذه الواجهة الفقيرة افتقارا، وتزيد تلك الواجهات المكدسة تكديسا. وهذا ما نرجوه لمقاومة مظاهر الكسل والجمود، والارتخاء واللامبالاة، والسطحية في التكوين، والاستسلام لمظاهر التناقض، و"مسلمات" التاريخ الواهية، والاكتفاء بالقليل من الزاد الذي لا يسعف صاحبه فكيف ينهض بغيره، والرضا بالمنقول والجاهز على الشبكات دون العكوف على الكتب والمصادر...الخ.

فكل تلكم آفات لا علاقة لها بالبحث والباحثين، إن كنا نقدر فعلا قيمة البحث وإنتاج العلم والمعرفة في تحرير الإنسان والنهوض بالعمران؛ وإن كنا نفهم وندرك، أن الأمر والاستفهام والانكار واللوم والعتاب، الوارد في مئات النصوص القرآنية حول تعطيل آليات: التفكر، والتعقل، والتدبر، والنظر، والاعتبار، والابصار، وإعمال السمع والبصر والفؤاد...، في آيات الله كلها: نصا، وأنفسا، وآفاقا؛ هو واجب وتكليف موازي ومعادل، في باب العلم والمعرفة، والعمران والحضارة، وإدراك السنن المتحكمة فيها؛ للواجب والتكليف في باب العبادات. وأن في الأولى من الأجر والثواب ما في الثانية، وأن تعطيلها ليس له من مقابل إلا ما نراه من واقع الانحطاط والتخلف والفرقة والتنازع. للأسف ما زلنا، أو معظمنا على الأقل، نعمل على تكريس هذا الواقع بدل رفعه، حينما نخطئ بوابات الدخول ومجالات الاشتغال.

وبعد.

لم أكتب ما كتبت انتصارا لهذا التكوين دون غيره، فهناك تكوينات لزملاء أفاضل لها نفس الاهتمام والطموح؛ ولا كتبت من أجل الإشادة بالنفس، فهذا سلوك لم أفعله قط حتى لو كان حقا واستحقاقا؛ وإنما كتبت لأن الحق والاستحقاق هنا مشترك ومتعدي وليس خاصا، تضافرت فيه وعليه جهود كثيرة هي محل هذه الإشادة ومحل هذا التنويه. فبارك الله في الجميع وتقبل من الجميع وما يزال العمل مستمرا بإذن الله وتوفيقه.

مركز دراسات المعرفة والحضارة
Center of Knowledge and Civilization Studies

maarifa-center.com

maarifa2011@ gmail.com

facebook.com/almaarifa.centre

All rights reserved © 2020

جميع الحقوق محفوظة© 2020

لجنة الإعلام والتواصل